مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الطُّورِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الطور

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الطور

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾
وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾
وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ
يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ
لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

ابتدأت سورة: الطور بالقسم من الله تعالى ببعض مخلوقاته العظيمة. بأن الذي وعدناكم به أيها الناس لواقع وقوعاً مؤكداً حق اليقين، وهو العذاب الذي ينال العصاة من المشركين وعموم الكفرة وأهل الضلال المتعالين. وبدأ القسم بالجبل الذي كلم الله تعالى عليه نبيه ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام، وأوحى إليه بما أوحى من التشريع، فقال تعالى ﴿وَالطُّورِ﴾ أي: والجبل الذي كلمنا عليه رسولنا موسى عليه الصلاة والسلام. ثم عطف سبحانه وتعالى عليه بقسم آخر أيضاً، وهو بالكتاب المكتوب ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ والمسطور أي: الكتاب المكتوب، وقد ورد الكتاب من غير تعريف، ليبين أنه كتاب مخصوص من بين الكتب. وقد ورد فيه أربعة أقوال: أحدها: أنه اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما. والثاني: كتاب أعمال بني آدم، قاله مقاتل والزجاج. رحمهما الله تعالى. والثالث: التوراة. والرابع: القرآن. حكاهما الماوري رحمه الله تعالى[١] فليس مجزوم بأنه واحد من تلك الدلالات. فقد يكون التوراة باعتبار دلالة ما قبله، وهو الطور الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه الصلاة والسلام، وقد يكون القرآن العظيم باعتبار الْمُخَاطَبين، وقد يكون اللوح المحفوظ باعتباره الأصل، وقد يكون كتاب أعمال الناس، تذكيراً به للعباد. وهذا من جوامع البيان وغزارته الدلالية التي في كتاب الله تعالى، والتي جمعت تلك الدلالات في توافق من غير تعارض، ولا تضاد بينها. فعلى قلة كلماتها إلا أنها استوفت جميع الأوجه. وهذا من بلاغة القرآن الكريم.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢١٦/٧)

ثم يصف تبارك وتعالى هذا الكتاب بقوله عَزَّ وجل ﴿ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ أي: تم تسطيره وكتابته في ﴿ فِى رَقٍّ ﴾ وهي الصحيفة التي يُكتب فيها، وهو ما رَقَّ من الورق والجلد، أي الجلد أو الورق الرقيق. قال القرطبي رحمه الله تعالى: كل صحيفة فهي رِق، لرقة حواشيها[١] ﴿مَّنشُورٍ ﴾ أي: أن صفة هذا الكتاب أنه ﴿مَّنشُورٍ ﴾ أي: مكتوب مبسوط. وتشمل كذلك دلالة ﴿مَّنشُورٍ ﴾ أي: المبسوط نشره وانتشاره بين العباد، فيعزز القول بأنه القرآن الكريم، من غير تعارض مع الأوجه والدلالات الأخرى.

ثم يعطف على ما سبق من القسم بقسم ثالث، فقال تعالى ﴿ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴾ أي: البيت المعمور في جميع الأوقات بالملائكة الكرام، الذي هو فوق السماء السابعة. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: بيت فيما ذُكِر في السماء، بحيال الكعبة من الأرض، يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة، ثم لا يعودون إليه أبداً[٢] وكذلك تفيد دلالته أنه البيت الحرام. ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أنه البيت الحرام، قاله الحسن. وقال أبو عبيدة: ومعنى ﴿ٱلْمَعْمُورِ ﴾ الكثير الغاشية[٣] أي: أن زُوّاره كثير. فأعطت دلالة الآية الكريمة معنيين: البيت المعمور في السماء، والبيت الحرام بمكة. ومن غير تعاض ولا تضاد. فذاك البيت المعمور بالملائكة في السماء، وهذا المعمور بالطائفين والركع السجود في الأرض. فاستوفت رحابة دلالة الآية الكريمة المقصدين من غير إعجاز ولا إطناب. مما يدل على عظمة كلام الله تعالى وإعجاز رحابته في استيفاء المقصد من غير إعادة ولا تكرار، وبأقل الألفاظ، مع جزالة السياق وعظمته، ورِفْعَة بلاغته المتناهية التي يعجز عن مثلها الجن والإنس ولو اجتمعوا.

ثم تلاه القسم الرابع: بالسماء المرفوعة المتعاظمة في علوها، فقال تعالى ﴿ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴾ أي: والسماء التي جعلها الله سبحانه وتعالى سقفاً للأرض. قاله جماعة من المفسرين[٤] ومن ذلك قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ فالسماء سقف للأرض، وهي مرفوعة ارتفاعاً يُبهر الرائي لها، لكونها شاهقة الارتفاع من غير عمد، وهي سقف للأرض، والمضيئة بالشمس والقمر والنجوم. وكذلك فإن السماء هي مصدر الرزق، كما قال تعالى في سورة الذاريات

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤١/١٧)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٦٢/٢١)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢١٦/٧)

(٤) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٥٧/٤)

﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ فإنها تمثل السقف للأرض. وأقسم الله تعالى بها لإظهار عظمتها. ولفت الانتباه لعظيم آياته وتدبيره سبحانه وتعالى.

ثم تلاه القسم الخامس، فقال تعالى ﴿ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ﴾ أي: البحر المعروف بامتلائه من الماء. ومعنى ﴿ ٱلۡمَسۡجُورِ ﴾ أي: المملوء. ولم يعين ويحدد سبحانه وتعالى نوعاً محدداً، ليشمل الوصف كل بحر من البحار التي ملأها الله سبحانه وتعالى بالمياه. وقد جعل الله تبارك وتعالى تكوينها بصفة ﴿ ٱلۡمَسۡجُورِ ﴾ أي: المملوء مع امتناع فيضانه على الأرض. ليلفت انتباه الْمُخَاطَبين على عظيم خلقه وتدبيره جَلَّ جلاله. فبالرغم من سعة البحر وقوة أمواجه، وما يكون فيه من المد والجزر إلا أنه لا يتجاوز حدود انتظام سيره، ليتجلى للعباد عظمة الله تعالى وقوة تدبيره وتنظيمه لِمَا خلق من المخلوقات. مما يتوجب على العباد أن يُكثروا من التأمل في آيات ربهم المبثوثة في الكون، بل وعليهم استظهار عظيم قدرته وتدبيره في التجانس والترابط بينها وبين آياته النقلية التي نقلها الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه تبارك وتعالى من خلال الوحي، والتي عرضها القرآن العظيم بأدق ما يكون العرض والتفصيل والتنبيه عليها. ليظهر بذلك أن دين الله تعالى قائم على الأدلة والبراهين التي تُوجب على من تفكر وتأمل فيها أن يُوَحِّد الله تعالى، ويعبده ولا يشرك به شيئاً، وأن يتبع ما جاء به رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن رحابة دلالة البيان الكريم أن دلالة ﴿ ٱلۡمَسۡجُورِ ﴾ تعني كذلك المتوقد حرارة والتهاباً. قال مجاهد رحمه الله تعالى: هو بمنزلة التنور المسجور[١] ومن ذلك قوله تعالى في سورة التكوير ﴿ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦ ﴾ أي: أوقدت، وأُضرمت ناراً، وذلك يوم القيامة. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: واختلف في معنى قوله تعالى ﴿ ٱلۡمَسۡجُورِ ﴾ فقال بعضهم: المراد به أنه يُوقد يوم القيامة ناراً، كقوله تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴾ أي: أضرمت، فتصير ناراً، تتأجج، محيطة بأهل الموقف. رواه سعيد بن المسيب، عن علي بن أبي طالب، وروي عن ابن عباس، وبه يقول سعيد بن جبير، ومجاهد[٢] وبالتالي استوعبت البيان الدلالتين بسياق واحد، من غير تعاض ولا تضاد. فالمقصود بذلك القسم بالبحر المملوء بالماء من غير فيضان، وكذلك القسم بحال تلك البحار يوم القيامة عندما تُسْجَرُ ناراً.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢١٦/٧)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٥٧/٤)

ثم ينتقل بهذا القسم العظيم إلى الْمُقْسَم عليه، فقال تعالى ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ فذكر تبارك وتعالى جواب القَسَم، بأن جميع ما وعدناكم به من العذاب للكافرين فإنه لكائن ومتحقق مثل ما أخبرناكم به. وأما ما يخص عذاب المؤمن على معاصيهم فالأصل أنه كائن وواقع بحسب معاصيهم، إلا أن يتجاوز الله تعالى عنها برحمته. وقد ورد ما وعد به سبحانه وتعالى من العذاب عاماً، ليستوعب ويستوفي عذاب الكافرين بالخلود في النار كما وعدهم ربهم به. ويشتمل على عذاب من يستحق العذاب من المؤمنين، على ما يكون منهم من المعاصي التي تستوجب العذاب، إلا أن يتجاوز الله تعالى عنها بمنه وكرمه. وإن كان العذاب في هذا المقام هو خاص بالكافرين حسب سياق ما بعدها من الآيات. فإن هذا الوعد من الله تعالى ﴿ لَوَاقِعٌ ﴾ أي: لكائن وقوعه كما أعلمكم به. ليفيد التهديد والزجر للكافرين بأن يغتنموا فرصة الحياة الدنيا، فيؤمنوا، ويدخلوا في الاسلام قبل فوات الفرصة، ومهلة الحياة الدنيا.

ثم يؤكد تبارك وتعالى ذلك الوعد باستحالة دفعه بأية وسيلة كانت. فيقول عَزَّ وجل ﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ فإن هذا العذاب الذي وعد الكفار به ليس له ما يرده ويدفعه عنهم. فمن قوته وشدته، وقوة سلطان ربكم وإرادته أنه ليس له ما يدفعه عن الكفار الذين استحقوه جزاء ولقاء كفرهم وجحودهم وعنادهم. مما يؤكد أيضاً تحقيق هدف الإنذار والترهيب لهم، بأن يستدركوا سعة الحياة الدنيا بالتوبة والإيمان قبل أن يتحقق فيهم ما وعد ربهم من العذاب لمن كفر. وهذا من رحمة الله تعالى إذ يبين للعباد الكافرين ما هم قادمون إليه، ليتوبوا، ويدخلوا في دينه عَزَّ وجل.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بموعد وقوع هذا العذاب الذي أقسم بوقوعه تبارك وتعالى، وأن ليس لأحد أن يدفعه. فقال تعالى ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ فسيكون هذا العذاب في اليوم الذي تدور فيه السماء دوراناً متحركاً. والمور هو: التحرك مع الاضطراب، وهو اضطراب السماء. إيذاناً بانقراض وانتهاء عالم الحياة الدنيا. فسيكون هذا العذاب في اليوم الذي تدور فيه السماء دوراناً متحركاً، فتتحرك فيه السماء تحركاً مذهلاً بكواكبها، فيموج بعضها في بعض. لإفادة أن هذا اليوم هو يوم القيامة، الذي يُبعث فيه الناس من قبورهم للحساب والجزاء. وقد أورده جَلَّ جلاله بأسلوب الترويع والتهديد للكافرين، بل أكد المور للسماء بصيغة المفعول المطلق بقوله عَزَّ وجل ﴿ مَوْرًا ﴾ بما يفيد تفظيع حالها وهيئتها التي لم يعتاد عليها العباد حال حياتهم الدنيا، وليدركوا نعمة سكونها عندما كانوا يعيشون تحتها. وهول يوم القيامة وفظاعته وشدته.

ثم يذكر تبارك وتعالى المزيد من صفة ذلك اليوم الرهيب، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ وأما الجبال فإنها لشدة هول ذلك اليوم فإنها تسير سيراً متسارعاً، ومضطرباً، لتكون هباء منثورا،

أي: قد استوت مع الأرض، لفظاعة ما في ذلك اليوم. فلم تعد بتلك القوة والرّسُوَّة، أمام هول أحداث يوم القيامة. وحين ذلك ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ فالهلاك والدمار بالعذاب الشديد للذين كذبوا بدين الله تعالى، فكذبوا المرسلين لهم من ربهم عَزَّ وجل. فبدأ الوعيد بدلالة قوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ الذي يفيد: الهلاك والدمار والحسرة، ثم يهول الله تعالى ذلك اليوم ويؤكده بدلالة ﴿يَوْمَئِذٍ ﴾ ذلك الحين، فالعذاب والهلاك ﴿يَوْمَئِذٍ ﴾ للذين كذبوا المرسلين ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ وهم الذين لم يؤمنوا ويصدقوا بآيات الله تعالى وحججه التي جاء بها المرسلون، فجحدوها وأنكروا دين الله تعالى، وما يتبعه من إنكار البعث والحساب والجزاء والجنة والنار، فالهلاك والدمار والحسرة لهؤلاء ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ فالهلاك بالعذاب الشديد في ذلك اليوم الذي وعدهم ربهم به، وهو يوم القيامة. فسيأتي ذلك اليوم الذي وعدناهم به من البعث والحساب والجزاء بالعذاب والهلاك الشديد لهم. ومن دقائق البيان الكريم أنه لم يُحدد موعد هذا اليوم، ليزدادوا به تفكراً وتخوفاً، ولتعظيم التهديد والتخويف لهم. وليشمل ما يكون في الدنيا من القتل والأسر، والبلاء، وما سيكون يوم القيامة من عذاب جهنم وبئس المصير، فاستوفى البيان الكريم كل ما هو قادم من عذاب الله تعالى لهم، وهذا من براعة البيان في كتاب الله تعالى.

ويفيد هذا البيان التحذير من الله تعالى للعباد. بل قد ورد عاماً، لتشمل دلالة ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ جميع الكفرة، ممن كانوا في العهود الماضية من الأمم السابقة، ومن كان في عهده صلى الله عليه وسلم أو ممن لحق بهم، ومن يريد أن يلحق بهم إلى يوم القيامة. فهذا هو مصير المكذبين بدين الله تعالى، فاحذروا أيها الناس من ذلك اليوم. وهذا من رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يبين لهم الطريق الذي يحصل به العذاب، ليحذروا منه ويجتنبوه. ويتجهوا للطريق المستقيم الذي هو من عند الله سبحانه وتعالى، فيدخلوا في دينه الذي أرسل به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يصف الله تعالى حال هؤلاء المكذبين في الدنيا، من الاستهزاء والتمادي في التكذيب بدين الله تعالى، فيقول جَلَّ جلاله عنهم ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ الذين ملؤا حياتهم بالاستهزاء بدين الله تعالى، فجعلوه في عداد السخرية والتندر. فقد كانوا في الدنيا يملؤون مجالسهم بكثرة الكلام في شأن رسالة أنبيائهم، وما أنذروهم به من البعث والحساب والجزاء. فكانوا يملؤون مجالسهم وملتقياتهم بالكلام المشين من التندر والتكذيب، والافتراء واختلاق الأكاذيب. فدلالة ﴿ فِي خَوْضٍ ﴾ بمعنى: الحديث، وكثرته فيما هو مذموم من الكيد والاستهزاء والسخرية. وقد جمع الوصف لهم بين الخوض واللعب ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ فَسَمَّى الله سبحانه وتعالى خوضهم باللعب، لأنهم وضعوا شأن الجد فيما جاءهم من الحق موضع الاستهزاء،

فكان حالهم حال من يلعب بالعظيم والجد، لبيان وإظهار قوة طغيانهم الذي كانوا فيهم يلعبون ويتندرون، ويستهزؤون.

ثم يقابل الله تعالى ذلك الاستهزاء منهم بما يستحقون من المكافأة التي تحمل الجزاء الأليم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ يوم تدفع الملائكة هؤلاء الكفرة على وجوههم دفعاً وسوقاً شديداً، ومهيناً، ومُذِلاً إلى النار، وذلك مقابل ما كان منهم من الاستهزاء بالمرسلين وبدين رب العالمين، وبيوم العذاب والحساب، وخوضهم بالكلام المشين من السخرية والتكذيب.

ومن دقائق البيان هو كثرة أسلوب التأكيد في الآيات السابقة بالوصف الذي أُسْتُقْطِع من نفس الفعل، وهو ما يُسمَّى عند أهل العربية بالمفعول المطلق. فكلمة ﴿ دَعًّا ﴾ مأخوذة من الفعل ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾ لتفيد التأكيد المملوء بالتهويل والترهيب، والتعظيم لذلك الدفع الشديد الذي تدفعهم الملائكة سوقاً لهم إلى نار جهنم. ثم تقول لهم ملائكة العذاب ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ هذه النار التي كنتم تكذبون بها ف الدنيا. فقد أصبحت أمامكم حقيقة، بل وتُدْفَعُون إليها دفعاً وسوقاً مهيناً. بما يفيد التحذير للكافرين مما هم قادمون عليه إن لم يتوبوا إلى ربهم، ويدخلون في دين الله تعالى.

ثم تقول الملائكة لهم على سبيل التهكم بهم، والتذكير بما كان منهم في الدنيا من رميهم الأنبياء بالسحر، فتقول لهم ملائكة العذاب ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ هل هذا الذي أمامكم من النار والعذاب سحر؟ أهو سحر أم حقيقة؟ لأن السحر خيال لا حقيقة له. كما ورد في سورة: طه ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ فالسحر يتسلط على العين بالخيل، فترى خيالاً لا يطابق الحقيقة. فهل هذا سحر كما كنتم تنعتون المرسلين بأنهم سحرة، كما قال تعالى عنهم في سورة الذاريات ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ فهل هذا سحر كما تعاقدتم وتواطأتم عليه أيها الكفرة عندما كنتم في الدنيا. فتتهمون المرسلين بالسحر فيما ينذرونكم منه؟ فكأنه قد حصل عقد بين المكذبين في تشابه أقوالهم في الدنيا على المرسلين وما جاؤوهم به من الدين القويم والحجج البينات، فجميعهم ينعتون أنبياءهم بأنهم سحرة.

ثم تقول الملائكة لهم بما يؤكد أن هذا العذاب ليس سحراً، وليس له من دافع كما ورد به القسم العظيم في مستهل هذه السورة العظيمة، فتقول لهم ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فهذه هي نتيجة تكذيبكم بما جاءكم من عند الله تعالى ﴿ ٱصْلَوْهَا ﴾ فعانوا شدتها، وعاينوا وقاسوا شدة عذاب جهنم، بما يفيد التعنيف والتوبيخ لهم من الملائكة الكرام، ثم تأييسهم من النجاة أو التخفيف

من عذاب جهنم ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟﴾ فسواء صبرتم أم لم تصبروا فلن يتغير شيء من حال العذاب بكم. فقد تساويا لكم شأن الصبر وعدمه. فساوت لهم الملائكة بين صبرهم على عذابها وبين عدم صبرهم، فهما أمران متساويان، بمعنى: أن صَبْرَكُم لن يخفف عليكم منها، وكذلك عدم صبركم بالصياح والنداء لن يخفف عليكم من لهيبها وعذابها. فلن تخرجوا منها أبداً. فإن الشأن لكم فيها متساويان ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ فهي مؤكدة وموضحة لقولهم ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟﴾ فدلالة التسوية ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ تفيد لا تخفيف ولا نجاة، ولا خروج، ولا موت لكم منها، ثم تُمعِن لهم في العتاب والإذلال وشدة العذاب، وتأكيد الاستحقاق، بحصرهم فيما يستحقون ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إنما أنتم فيه من الجزاء محصور سببه فيما كان منكم من الكفر. فليس هناك ظلم لكم. فأنتم الذين جنيتم على أنفسكم بما أنتم فيه من العذاب.

فهذا إخبار من الله تعالى للعباد بأحوال أهل الكفر يوم القيامة، بما يفيد الإنذار، وانتفاء الأعذار، فقد جاءكم النذير، والبلاغ المبين، ولكل نفس اختيارها وجزاءها الموافق لأعمالها. وهذا من عدل الله تعالى ورحمته، بتحذيره وبيانه العظيم بكل وجه من الترهيب والترغيب، وضرب الأمثال، وقَص القصص، والمواعظ التي امتلأ بها شرعه الحكيم، وعلى رأسه القرآن العظيم وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾
كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا
كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾
وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا
قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ
نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

بعد أن تناولت الآيات السابقة من سورة والطور، حال الكفرة المكذبين، وما سينالهم من العذاب الشديد، تنتقل الآيات الكريمة إلى بيان حال المتقين. فيقول عَزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ فإن الذين اتصفوا بالتقوى، التي جمعت الخوف من الله تعالى والرغبة والطمع فيما عنده تبارك وتعالى، فاجتهدوا

في اتقاء ما يُغضب ربهم عَزَّ وجل، واجتهدوا في طاعته جَلَّ جلاله، بالسعي في رضاه، فإنهم في الآخرة ﴿ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ أي سيكونون في البساتين، وبين الأنهار، فيها يتنعمون.

وقد بدأ وصف حال المتقين بحرف التأكيد ﴿ إِنَّ ﴾ الذي أفاد ثبوت ما سيكونون فيه من النعيم، وجاء السياق على وجه التحقق، فلم يكن على صيغة المستقبل، بالرغم من أن هذا في الآخرة التي سيعودون إليها، إذ وَرَد الوصفُ لحالهم وكأنه قد تحقق، إمعاناً في التأكيد، والتشويق والاطماع والترغيب لهذا الإنسان بأن يكون من المتقين، فأعطى السياق قوة في تظافر الإعجاز البياني مع الإعجاز الدلالي، وأفاد النص الكريم عظمة منزلة المتقين التي يجب أن يتسابق لها المؤمنون. وأُضيف للجنات دلالة النعيم الذي ينفي أضداده، فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَنَعِيمٍ ﴾ بما يفيد أن نازليها في نعيم مقيم، لا يزول ولا يحول. فقد اتصفت بالنعيم الدائم، فانتفى منها كل ما هو ضد النعيم، من التعب والنصب والمرض والشقاء. ومن دقائق البيان وُرُوُد الجنات بصيغة الجمع ﴿ فِي جَنَّٰتٍ ﴾ ليفيد تنوع النعيم، مع التعدد والكثرة، كما وردت بصيغة التنكير، ومثلها النعيم ﴿ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ لغرض التعظيم والتبجيل لها، وللمُقَامِ فيها ولأهلها.

ثم يزداد الوصف لأهل الجنة، فيقول تبارك وتعالى ﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فاكهين. أي: مُنَعَّمِين، مُترفين. ومن دقائق البيان أن دلالة ﴿ فَٰكِهِينَ ﴾ تشمل السرور من قوة النعيم والتلذذ والتَّنَعُّمِ. وتجمع كذلك دلالة ﴿ فَٰكِهِينَ ﴾ التلذذ بالفاكهة من الثمار. فهي جامعة لانشراح النفس وانبساطها من قوة التَّنَعُّمِ الذي يعيشونه في الجنة. مما يبين ويؤكد أهمية التقوى ومنزلتها. وقد نسب الله تعالى هذا الإنعام منه لهم ﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ وذلك إمعاناً في التكريم، بأنه أكثر وأعظم مما يستحقون، لأنه من الرب العظيم الكريم الرحمن الرحيم. فهو الذي آتاهم ما هم فيه من هذا النعيم الذي هم فيه يتفكهون. ثم يزيدهم سبحانه وتعالى من فضله، بأن وقاهم من عذاب النار. فقال تعالى ﴿ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ وإن من فضله تبارك وتعالى على المتقين أن أبعدهم عَزَّ وجل بفضله وكرمه عن عذاب ﴿ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي: عن عذاب جهنم. فهم في وقاية وأمان من أن ينالهم شيء من عذاب الجحيم، لما كان منهم من تقوى الله تعالى في الدنيا. مما يفيد الترغيب في تقوى الله تعالى، وذلك بالحذر من عقابه، والعمل بطاعته عَزَّ وجل. كما نسب وقايتهم من عذاب الجحيم له عَزَّ وجل، وذلك لمزيد التكريم، حيث تكررت لفظة

﴿ رَبُّهُمْ ﴾ مرتين: الأولى: في العطاء ﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ والثانية: في الوقاية من عذاب الجحيم ﴿ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ لتفيد عظيم التكريم والحفاوة لهم من الله تعالى.

ثم يذكر جَلَّ جلاله نوع هذا النعيم من حيث الطعام والشراب، وكذلك علة وسبب هذا التكريم العظيم للمتقين. فيقول عَزَّ وجل ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يُقال لهؤلاء المتقين عند دخولهم الجنة من باب الترحيب، والعناية والتكريم ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ ﴾ كلوا واشربوا ما شئتم في هناء. وورد التوجيه لهم بالأكل والشرب بحذف القائل لهم، من باب تفخيم الاستقبال لهم ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا ﴾ أي: تقول لهم الملائكة: كلوا واشربوا ما شئتم في هناء، وليهنأكم ما أنتم فيه وصرتم إليه من النعيم المقيم. والهنيء ما تُؤْمَن عاقبته، وما أعقب نفعاً وعافية، ولم يعقبه أذى، ولا إثم. وهو الطيب المساغ الذي لا ينقصه شيء من الأطايب، فقد اكتمل طيبه، كما يعني الحلال الذي لا إثم فيه.

ثم يذكر تبارك وتعالى سبب ما ناله المتقون من هذا النعيم العظيم الذي لا يخطر ببال أحد، فقال عَزَّ وجل ﴿ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ليهنأكم ما أنتم فيه بسبب ما كان منكم من العمل بالتقوى التي أوصلكم الله تعالى بها إلى هذا المقام الكريم. فحصلتم على هذا النعيم بسبب ما كنتم عليه في الدنيا من الأعمال الصالحة التي تستحقون بها هذا العطاء الذي وعدناكم به. مما يدل على عظيم عطاء الله تعالى وإحسانه، وعظيم كرمه، وعظيم خلقه وتدبيره. بل ويُرَغِّب العباد فيما عنده من النعيم المقيم، وذلك بوصف الجنة، وكأنهم ينظرون إليها. مما يستوجب على العباد الالتزام بدين الله تعالى، ليحصلوا على هذا النعيم المقيم الذي لا ينقطع ولا يزول، وأن يجاهد الإنسان نفسه في هذه الدنيا القصيرة، المليئة بالنصب والكدح والتعب، والمفاتن والمغريات الزائلة ليكون من المتقين، فيفوز بهذا الفوز العظيم الدائم الذي لا ينقطع ولا يزول.

ثم يصف الله تبارك وتعالى مجالس أهل الجنة، فيقول عَزَّ وجل ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ يجلسون على سرر، وحالهم وهم على هذه السرر أنهم ﴿ مُتَّكِـِٔينَ ﴾ أي: في حالة من الجلوس المريح لهم. والاتكاء يدل على كمال الراحة. قال السعدي رحمه الله تعالى: الاتكاء هو: الجلوس على وجه التمكن والراحة، والاستقرار. والسرر هي: الأرائك المزينة بأنواع الزينة، من اللباس الفاخر، والفُرش الزاهية. ووصف الله تعالى السرر بأنها ﴿ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ ليدل ذلك على كثرتها، وحُسن تنظيمها، واجتماع أهلها

وسرورهم بحسن معاشرتهم، وملاطفة بعضهم بعضا[١] وتدل دلالة ﴿مَّصۡفُوفَةٍ﴾ أنها مرتبة ترتيباً يُمكنهم من التقابل في الجلوس، كما ورد في سورة الصافات ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ فمن مزايا تكريمهم أنهم يجلسون على سرر مرتفعة، ومرتبة ترتيباً يجعلهم متقابلين فيما بينهم. وهذا من مزايا التكريم، بأن يكون جلوسهم على سرر مرتفعة في تنظيم بديع، وهم متقابلون يتحدثون ويستأنسون بنعيم الاجتماع. فالوصف في سورة الصافات يبين التقابل، وفي سورة الطور يبين حُسن التنظيم والاصطفاف البديع الذي يمكنهم من كمال وتمام بهجة وأنس المجالسة. فهي في وضع مصفوف، بعضها إلى جوار بعض مع التقابل فيما بينهم. قال مجاهد وغيره، رحمهم الله تعالى: وقيل: الأَسرَّة تدور كيفما شاؤوا، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: على سُرُر مكللة بالياقوت والزبرجد والدر[٢] مما يبين كرامتهم، وأن أهل الجنة يتقابلون، ويجتمعون، ويجلسون مع بعضهم البعض في أدب من المقابلة التي لا يتدابرون فيها.

ومن مزيد النعيم الذي يجده المتقون عند ربهم هو قوله تبارك وتعالى ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ وكذلك أكرمناهم بأن زوجناهم ﴿بِحُورٍ عِينٖ﴾ والحور هن نساء الجنة الموصوفات بجمال البياض النقي، مع سعة العيون. وقال مجاهد رحمه الله تعالى: والحور: اللاتي يحار فيهم الطرف. وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: الحور هو نقاء البياض. كما قيل للنقي البياض من الطعام: الحُوَّارَى[٣] وهو فضل من الله تعالى عظيم، مما يستوجب السعي الحثيث في طاعة الله تبارك وتعالى. كما يفيد ذلك أن من آداب الجلوس هو عدم التدابر، بأن لا يعطي الجالس قفاه وخلفه لغيره، بل يكون الجلوس مقابلة، ما أمكن ذلك، إلا أن تكون هناك ضرورة وحاجة.

ثم من مزيد تكريم الله تعالى لأهل الجنة أن يُلحق ذريتهم بهم، من الذين تابعوهم في طاعة ربهم سبحانه وتعالى. فقال جَلَّ جلاله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ فمن تمام إنعام الله عَزَّ وجل لأهل الجنة أنه يُلحق بهم ذريتهم التي تابعتهم في الإيمان والطاعة لربهم عَزَّ وجل. فسمى أهل الجنة بما كان منهم من الإيمان ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ثم ألحق بهم ذريتهم بشرط المتابعة ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ فتحقق في ذريتهم ما تحقق فيهم من الإيمان.

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١١١/٥)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٣/١٠)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٥/٢١)

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه في العمل، لِتَقر بهم عينه[١] ثم يخبر سبحانه عن عظيم كرمه، بأن هذا الإلحاق للذرية مع والديهم ليس بإنقاص حسناتهم وإعطائها لذريتهم، حتى يرتفعوا إلى مقام والديهم، بل إكراماً وتفضلاً منه سبحانه وتعالى عليهم بذلك. فقال تبارك وتعالى ﴿ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ ﴾ وما أنقصنا من أعمالهم الطيبة شيئاً. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: والمعنى: ما نَقَصْنَا الآباء بما أعطينا من الذرية[٢] فهي مكافأة وتفضلاً وتكرماً من ربكم تبارك وتعالى من غير مقابل، وإنما إحساناً لكم على ما كان منكم من الطاعة لربكم. مما يدل على عظيم كرم عطاء الله تعالى الذي يستوجب شكر نعيمه وإنعامه. كما يفيد ذلك أهمية العناية بتربية الذرية حتى يلحقوا بوالديهم الصالحين.

ثم يؤكد تبارك وتعالى أن كل أحد من العباد مرهون بما قدم من العمل في الدنيا، فقال جَلَّ شأنه ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴾ فأكد الله تعالى بها استيفاء الأعمال بما يقابلها من الجزاء من غير إنقاص من أحد لأحد، أو زيادة من أحد لأحد، فلا يمكن للوالدين أن يعطيا ويهبا شيئاً لأولادهم من حسناتهم، ولا أولادهم يهبون لهم شيئاً من حسناتهم. وتفيد كذلك أن أهل الكفر مجزيون بأعمالهم، وأهل الإيمان مجزيون بأعمالهم الطيبة.

ومن مزيد نعيم أهل الجنة هو إكرامهم بما يشتهون من الفاكهة، وبما يشتهون من اللحوم. فقال تعالى ﴿ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴾ وزدناهم بواسع فضلنا على ما هم فيه من النعيم بفاكهة كثيرة، وكذلك بما يشتهون ويطلبون من أنواع اللحوم. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والإمداد: إعطاء المدد، وهو الزيادة[٣] قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي الزيادة على الذي كان لهم[٤] وتفيد دلالة ﴿ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ ﴾ العطاء المتتالي من جميع الثمار التي يتلذذ بأكلها أهل الجنة، كما تفيد دلالة ﴿ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴾ غزارة الإمداد المتتالي بكل نوع تشتهيه نفوس أهل الجنة من اللحوم، فبمجرد اشتهاء اللحم، فإنه يأتيهم وفق الهيئة والنوع الذي جال في خواطرهم، فاشتهته نفوسهم.

(١) المرجع السابق (٥٧٩/٢١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢١٩/٧)

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٤١/١١)

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢١٩/٧)

ثم يذكر تبارك وتعالى ما يتعلق بمشروبات أهل الجنة، فيقول عَزَّ وجل ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴾ أي: يتداولون ويتجاذبون ويتعاطون فيما بينهم في الجنة ﴿كَأۡسٗا ﴾ وهو الإناء الذي يشربون فيه مشروبهم من خمر الجنة، فإن محتوى هذا الكأس من الشراب ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا ﴾ أي: ليس فيها ما يجعلهم يفقدون عقولهم فَيفعلوا ويقولوا بما لا يليق. كما أن من وصفها أنها ﴿وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴾ فلا يُؤثِمهم شربها، فيجعلهم يرتكبون الأفعال السيئة، لأن عقولهم لا تذهب بشربها. لينفي عن تلك الكؤوس ما هو معروف عن خمر الدنيا، بل هو مختلف عنها تماماً، كما ورد في سورة الصافات ﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴾ بكأس من ماء طاهر. فالمعين هو: الماء الطاهر الجاري، فَيُطاف عليهم بكؤوس من خمر، بيضاء في لونها، ولذيذة في شربها، من أنهار جارية لا تنقطع، وليس فيها ما هو من خمر الدنيا من الأذى للجسم وذهاب العقل. مما يبين أن خمر اللجنة نعيم في طعمه، وفي كثرته، وصفائه ولونه، وليس فيه ما يؤذي شاربه كخمور الدنيا.

ومن جميل نعيم الجنة أن هناك من يقوم بخدمتهم، قال تعالى ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴾ وتدل دلالة الطواف عليهم: أنهم يترددون عليهم بما يشتهون. فيدور عليهم بما يشتهون من المأكولات والمشروبات. وأن صفات الذين يقومون بخدمتهم أنهم ﴿غِلۡمَانٞ﴾ أي: فتية ﴿لَّهُمۡ ﴾ خاصين بهم وبخدمتهم. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والغلمان جمع غلام، وحقيقته أنه من كان في سن يقارب البلوغ، أو يبلغه[1] وقد بلغوا من جمالهم ونظافتهم، وجميل ترتيبهم في هيئتهم وزينتهم ﴿كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴾ أي: مثل اللؤلؤ المصون لنفاسته. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: كأنهم لؤلؤ في بياضهم وصفائهم. وعن قتادة: ذُكِر لنا أن رجلاً قال: يا نبي الله، هذا الخادم، فكيف بالمخدوم؟ قال (والذي نفس محمد بيده، إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب)[2] مما يبين كمال الجمال والتألق الذي لا يضاهيه شيء، ولا يمكن أن يتصوره أهل الدنيا كما هو في الآخرة، إلا الوصف والنعت فقط. اللهم إنا نسألك الجنة وأهلينا أجمعين، وإخواننا المسلمين يا رب العالمين، بمَنِّكَ وفضلك وكرمك يا رب العالمين.

ثم يُخْبِرُ اللهُ تعالى بما يدور من أحاديث أهل الجنة عما كان لهم في الدنيا. فقال تعالى عنهم ﴿ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ فأقبلوا على بعضهم في الحديث عما كان في دار الدنيا، وهم يتساءلون في نقاش

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١١/٤٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٥٨٩)

بينهم ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ قد كنا بين أهلينا خائفين من عذاب ربنا لنا، بسبب ما قد يحصل من التقصير، وعدم كمال طاعتنا، وما قد نقع فيه من الذنوب، فكنا ﴿مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين على أنفسنا، عندما كنا في دار الدنيا مع أهلنا. ثم يذكرون كرم ربهم عَزَّ وجل الذي نجاهم، وأكرمهم بما هم فيه من النعيم المقيم بالجنة، فقال الله تعالى عنهم ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ فتفضل الله تعالى علينا بالهداية والتوفيق ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ فالامتنان هو التفضل عليهم بأفضل وأحسن المعاملة والجزاء والإكرام مما يستحقون. بقبول أعمالنا الصالحة، وأبعدنا عن العذاب ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ وجنبنا بفضله ومنه ﴿عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ فأبعدنا حتى عن ريح جهنم المستعرة. لأن السموم هي الريح الحارة. وقد وقاهم الله تعالى لهيب النار التي تتوقد بحرارتها وسمومها. فوقانا مما كنا خائفين منه. وقد ذكر تبارك وتعالى إبعادهم عنها في سورة الأنبياء. فقا عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ فالذين سبقت لهم في علم الله تعالى السعادة، بما كُتِبَ لهم في اللوح المحفوظ فإنهم مُبعدون عن جهنم، فلا يسمعون صوت لهيب النار من شدته، ولا حركة هيجانها وأزيزها، ولا أي صوت للنار، ولا حتى صوت اصطراخ أهلها الذين يحترقون فيها، فهو تأكيد لبعدهم عن النار، وعن كل منقصاتها، وجميع ما يزعجهم، وهذا من كمال سعادة أهل الجنة، أنهم مُبعَدُون عن المنقصات ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ أي: لا يسمعون حس النار وحركة لهبها.

ثم يذكرون ما كان منهم من الدعاء في الدنيا خوفاً من العذاب، فيقول الله تعالى عنهم ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ إنا كنا في دار الدنيا نتوسل إليه ونرجوه ونطلبه سبحانه وتعالى أن يدخلنا الجنة، وأن يقينا العذاب، فاستجاب لنا ربنا هو لا غيره ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ إنه هو الصادق فيما وعد، واللطيف، والعطوف على عباده. فقد وصفوا ربهم بصفتين عظيمتين: الأولى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ﴾ الصادق فيما وعد، واللطيف، والعطوف على عباده. فقد ورد في دلالتها ثلاثة معاني متظافرة. أحدها: الصادق فيما وعد. قاله ابن عباس. والثاني: اللطيف. قاله ابن عباس. والثالث: العطوف على عباده. المحسن إليهم، الذي عم بره جميع خلقه. قاله أبو سليمان الخطابي[1] وأما الصفة الثانية التي وصف بها أهل الجنة ربنا سبحانه وتعالى، فهي:

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/٢٢٠)

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ اسمٌ متضمنٌ لصفة الرحمة، الموصل رحمته إلى خلقه أجمعين. فالرحيم يفيد إيصال رحمته إلى خلقه.

وقد أفاد ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المبالغة في الرحمة منه جَلَّ جلاله. فهو غزير وكثير الرحمة. مما يدل على كريم لطفه بعباده سبحانه وتعالى، فقد وسعت رحمته كل شيء سبحانه وتعالى. ومن جليل رحمته إنزال القرآن رحمة للعالمين، وإرسال المرسلين، وخاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. فهو سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم في الدنيا وفي الآخرة.

وفي اجتماع الرحمة من الله تعالى على عباده مع الحزم الجاد بعذاب الكافرين ما يفيد تربوياً ودعوياً وقيادياً في مجال الإدارة ونحوها، أهمية الجمع بين قوة التطبيق والحزم فيه، وبين الرحمة بالغير. ليتحقق القبول والأداء، وهو التوازن بين الترغيب والترهيب، الذي يحقق التوازن النفسي والتوازن في التفاعل والتعامل.

ومن دقائق البيان أن تصدر قول أهل الجنة في وصفهم لربهم تبارك وتعالى حرف نون التوكيد ﴿إِنَّهُۥ﴾ الذي التحق بضمير الإشارة له سبحانه وتعالى، ثم حُصر الاسم والصفة الكاملة التامة له عَزَّ وجل دون غيره ﴿إِنَّهُۥ هُوَ﴾ لا غيره سبحانه وتعالى ﴿ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ إذ ورد ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ لحصر وقصر صفتي البر والرحيم عليه تبارك وتعالى، لإفادة المبالغة في بره ورحمته جَلَّ في علاه. فليس لأحد غيره له صفة كمال البر، وكمال صفة الرحيم. فإن من بره ورحمته أنه أفاض علينا ما أدخلنا به الجنة، ووقانا من عذاب النار، بل ووقانا حتى من سمومها، فلم تقربنا. وهذه بشارة للمتقين بما سيكونون عليه من الله تعالى البر، الرحيم.

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ
﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ
يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ
أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ
أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

ثم ينتقل البيان الكريم إلى توجيه النبي صلى الله عليه وسلم بمنهجية التعامل مع المشركين، وبيان حال المشركين وطعونهم في الرسول صلى الله عليه وسلم وفي عموم دين الله العظيم، وقد تناول الرد عليهم بما يُظهر ويكشف بطلان أقوالهم، واعتقاداتهم الفاسدة، ودحضها بالقول الفصل المبين. فقال تعالى موجهاً رسوله صلى الله عليه وسلم بما يلزمه من المنهج الدعوي الحكيم. فقال جَلَّ جلاله ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ فاستمر أيها الرسول صلى الله عليه وسلم في تذكيرك لناس بدين الله تعالى وحججه. بما

كلفك الله تعالى به من الرسالة، حتى تقوم الحجة من الله تعالى على الناس، ولا تُبالي ولا تكترث بكلام الفاسدين الحاسدين الجاحدين للحق، ونعوتهم لك بأنك كاهن ومجنون.

فَوَجَّه اللهُ تبارك وتعالى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالاستمرار في تذكير الناس ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ فعل أمر، يفيد الوجوب في الاستمرار، وعدم المبالاة بقول الكفرة الجاحدين. بما يعلم المؤمن منهجية العمل والأداء، سواء كان في الدعوة أو الإدارة والقيادة والريادة في الأعمال، أو في أي مجال كان، بأن لا يلتفت للمحبطين، والحاسدين، والجاحدين. وبما يفيد أهمية تربية المؤمنين على هذا النهج الذي لا يجعل لكلام الحاسدين أثر في حياته.

وقد نفى الله سبحانه وتعالى ما يقوله وينعته به أهل الجحود من الكفرة المشركين. فيقول عَزَّ وجل ﴿فَمَآ أَنتَ ﴾ نفي قاطع، وتزكية من رب العالمين بأنك أيها الرسول لست ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ ﴾ أي: بما أنعم عليك من الرسالة والنبوة وعظيم التكليف وشرفه ﴿بِكَاهِنٍ ﴾ وهو من يَدَّعي علم الغيب، فإنك لم تدع شيئاً من ذلك، بل تخبرهم بما أوحاه الله تعالى إليك. وكذلك ﴿وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ لست بفاقد من عقلك شيئاً كما يقولون، فزكاه وبرأه سبحانه وتعالى من ذلك. فما أعظمها من تزكية من رب العالمين. فأثبت لنبيه صلى الله عليه وسلم منتهى كمال العقل ورزانته عليه الصلاة والسلام. مما يفيد أنه إذا لم يَسْلَم خير البرية صلى الله عليه وسلم من التُّهَم الباطلة، فإن غيره لن يسلم من اتهامات المبطلين. فعلى المؤمن ألا يلتفت لها، ولا ينشغل بها، وبالرد عليها، فتشغله عن أهدافه ومسيرته من الخير في حياته. فهي قاعدة ومنهجية لأهل الحق مع أهل الباطل.

ثم يزداد الكشف من الله تعالى لحقائق هؤلاء المشركين، وتنقلهم في الافتراء، والتطاول بغير حق. فيقول عَزَّ وجل ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ أي: أو أيقول هؤلاء المشركون أن محمداً قد يقرض الشعر وينظمه، فاخترع لنا هذا النظم من القرآن. فنتربص به حوادث الدهر. وقد ورد البيان من الله تعالى بصيغة السؤال ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ ﴾ سؤال استنكار وتعجب، وتقريع للمشركين فيما يفترون على الرسول صلى الله عليه وسلم من الكذب. وكذلك انتقال من استنكار نعتهم له صلى الله عليه وسلم بالكهانة والجنون إلى الانتقال بحرف ﴿ أَمْ ﴾ إلى نظم الشعر. بما يفيد الكشف عن حالتهم في الانتقال من كذب إلى كذب. وتوضيح قوة حيرتهم وشتات أمرهم في بحر الأكاذيب، والتهم الباطلة.

وقد انتقلوا بسبب عجزهم عن صده عليه الصلاة والسلام عن دعوته إلى الانتظار والصبر عليه تربصاً بما يحل به عليه الصلاة والسلام من المكاره، كما قال تعالى عنهم ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ ننتظر أن يحل

به الموت. والتربص يفيد معنى الانتظار، وأفادت دلالة ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أحداث الدهر من الموت وغيره. فالمنون هو الموت. والريب هو حوادث وأحداث الدهر من الموت وغيره من المكاره بحسب ظنونهم الفاسدة. فقد حددوا انتظارهم بعموم حوادث الدهر التي تنتهي بموته صلى الله عليه وسلم، حسب ما يشتهون ويريدون. قال مجاهد رحمه الله تعالى عن معنى ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾أي: حوادث الدهر. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الموت. يتربصون به الموت[1] عليه الصلاة والسلام. مما يدل على عجزهم عن صده صلى الله عليه وسلم عن أداء رسالته النبوية، بالطريقة التي يريدونها من التوقف عن دعوته عليه الصلاة والسلام. مما يفيد قوة نصر الله تعالى ومعيته لرسوله عليه الصلاة والسلام، وأنه سبحانه وتعالى مُظهر دينه ولو كره المشركون.

فيرد الله تعالى عليهم بما وجَّه به رسوله صلى الله عليه وسلم، بأن يقول لهم: ﴿قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ قل لهم يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿تَرَبَّصُواْ﴾ انتظروا بي ما تتمنونه من أن يصيبني الموت. وبالمقابل ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ وكذلك ﴿فَإِنِّي مَعَكُم﴾ أي: أشاركم التربص. بما يفيد التسوية والمماثلة في التربص. فجميعنا متساوون في ذلك ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ فإني معكم ولكن مع المفارقة والاختلاف بين تربصي وتربصكم. فهي تسوية في حالة التربص، ولكن تختلف النتيجة بين الفريقين. وهو من أساليب التقريع والتهكم مع التهديد لهم، وبأسلوب غاية في الحكمة العظيمة. فهو تحذير لهم من أن يصيبهم الهلاك ويقع بهم الموت بدلاً من أن يصيب النبي عليه الصلاة والسلام. مما يفيد نجاته عليه الصلاة والسلام مما يتمونون به صلى الله عليه وسلم وهلاكهم، ووقوع دلالة التربص عليهم. وقد أهلكهم الله تعالى في غزوة بدر، حيث هلك الله تعالى الكثير من كبرائهم. وفي هذا آية عظيمة على نبوته عليه الصلاة والسلام. ولذلك دخل أعداد كبيرة في الإسلام بعد صلح الحديبية، في زمن الهدنة.

ثم يستمر البيان من الله تعالى في تفنيد افتراء المشركين، وكشف حقائق نفوسهم وعقولهم، وتحليل ما في خواطرهم تحليلاً دقيقاً، مع تهويل ما قاله المشركون لرسوله صلى الله عليه وسلم، بما يفيد التهديد والتحذير لهم مما هم فيه من الباطل والبغي، فيقول عَزَّ وجل ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أتأمر عقول هؤلاء المكذبين بدين الله تعالى أن يقولوا هذه الأقوال من الافتراءات المتباينة عن رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ فإن لم تأمرهم عقولهم بذلك، فإنهم من المبالغين في الجور والتجبر. أهؤلاء الذين

---

[1] الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٥٩٢-٥٩٣)

يَدَّعون لأنفسهم الحلم والتعقل، ثم يقولون لرسول ربهم صلى الله عليه وسلم: أنه كاهن ومجنون وشاعر. فاختلقوا الكذب، واخترعوه. فهو سؤال يفيد التهويل والتحذير والتشنيع على أقوالهم.

أيكون إذاً شأنهم بأنهم ﴿ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴾ سؤال تعنيف لهم، وكذلك هو تقرير بطغيانهم، مع سلامة عقولهم التي تقوم بها الحجة عليهم. والطغيان يعطي دلالة المبالغة في الجور والتعدي على الحق بالظلم، ومجاوزة الحد فيه. ومن ذلك طغى السيل إذا فاض وخرج عن مساره وحدوده. فهؤلاء تجاوزوا الطبيعة البشرية المعتدلة، والفطرة السوية. وبما يفيد اللوم والتوبيخ والتعجب من حالهم. مما يبين خطر الطغيان على تفكير وتصرفات الإنسان. وأن الطغيان يحول بين المرء وبين قبول الحق، وأنه يؤدي بصاحبه إلى الهلاك. وبما يفيد التحذير من أخلاق الطغيان. فإن الطغيان قاسم مشترك بين أهله في النتيجة.

وورد البيان بصيغة الاستفهام، بحرف ﴿ أَمۡ ﴾ الذي يعنى: بل، ليفيد الانتقال إلى نوع آخر من تحليل دواعي أقوالهم التي لا تتناسب مع عقولهم. فأقوالهم الْمُنْكَرة لا تتوافق مع من له عقل إدراك وعقل رشد.

فهو استفهام توبيخ واستنكار، يدل على الوعيد لهم بما يستحقون من العذاب. فهو انتقال به من توبيخ ﴿ أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ﴾ إلى توبيخ آخر ﴿ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴾ فينفي التوبيخ الثاني أن يكون ذلك بسبب عقولهم، لأن عقولهم سليمة، لا خلل فيها، بحيث ينكرون الحق المعضود بالحجج والبراهين التي أرسلنا بها رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم. فكيف يقولون ذلك مع قوة الحجج الظاهرة لهم بنبوته عليه الصلاة والسلام، وأنه رسول من الله تعالى عليه الصلاة والسلام؟ بما يقرر أن عِلَّة وسبب ذلك أنهم ﴿ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴾ فهؤلاء زاد فيهم التجبر والتكبر، والجور والتعدي على الحق بالظلم، حتى أنهم تجاوزوا المنتهى فيه. فتجاوزوا الطبيعة البشرية المعتدلة، والفطرة السوية. مما يفيد أن الحاسد والمستكبر يخترع الأباطيل من أجل الانتصار لما في نفسه من الاستكبار والتعالي والحسد، وأنه يستصعب في نفسه الاعتراف والإقرار بالحق. مما يفيد الانتباه والحذر من شرور النفس، ومعالجتها، وجهادها، ومجاهدة الشيطان.

ثم يزداد الكشف عن أقاويلهم الباطلة، وتعريتها بما يُثبت أنهم قوم طاغون، فيقول تبارك وتعالى ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ أو يقولون افتراه من عنده؟ لأن التَّقول هو: التكلف في القول ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ﴾ أي: أم أنهم يتهمون رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم بأنه قد تكلف القول لهم، فاختلق القرآن من عنده؟ وهذا لا يقول به عاقل، وعربي، يعرف تراكيب الكلام، وسياقه وبلاغته. فيقول بأن القرآن قول بشر. لأنه لا يمكن أن يكون ذلك. فلا يمكن أن يقول هذا القول بشر أبداً. فإن مضمونه، وبلاغة سياقه، وإعجاز تراكيب كلامه، وقصصه، وتشريعه وأحكامه، ومنهج الترغيب والترهيب والمواعظ فيه، وما تضمنه من الأمر

بمكارم الأخلاق التي تتوافق مع الفطرة السليمة، ونهيه عن المنكرات التي تستنكرها الفطرة الصحيحة تستبعد عنه أن يكون من قول البشر. فإن جميع مضمون القرآن العظيم قد اشتمل على الإعجاز الذي تشهد له بها عقولهم.

ثم يَعْرِض البيان عن هذا الافتراء، بما يُثبت أنه ليس هو صدق منهم، بل هو افتراء يتنافى مع عقولهم، وحقيقة ما أدركوه من الحق في قرارة أنفسهم، ولكن السبب هو رفضهم للإيمان به ﴿ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ بل إن الذي حملهم على ذلك أنهم لا يؤمنون به، استكباراً. فعدم تصديقهم له هو بسبب استكبارهم الذي جعلهم يطعنون بالافتراء في شخص النبي صلى الله عليه وسلم. مما يبين خطورة الحسد والاستكبار، فإنهما قوتان تضرب بقلب صاحبها في التحدي والتصدي للحق. وإذا كان هذا في أمر الدين، الذي يعقبه ويتبعه العذاب المقيم لمن استكبر عليه. فكيف بحال المتكبر مع غيره في أمور التعامل مع من يتعامل معهم؟ فإنه يجره إلى أعلى درجات الشر والطغيان، وفقدان الخير. مما يفيد التحذير من الكبرياء والحسد، فإنه القائد إلى الشر في كل شأن، وفي كل مرفق من مرافق الحياة المختلفة.

وقد أكد تبارك وتعالى في سورة الأنعام حقيقة كفرهم، بأنه ليس ناتج عن عدم التصديق ولكنه من باب الجحود، حيث قال تبارك وتعالى عن تفاصيل كذبهم ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ فإن تكذيبهم ليس متعلق بشخصك، ولا بالذي جئت به من عند الله تعالى ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ فإنهم لا يتهمونك بالكذب، لأنهم يعرفون حقيقته صلى الله عليه وسلم، وحقيقة ما جاء به. وبالتالي لا ينفون صدق ما جاء به صلى الله عليه وسلم، طالما أنهم لا يكذبونه، بدليل ما تضمنه النص الكريم ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ ولكن مشكلتهم في جحودها وليس في استيعابها ومعرفتها. فإنهم لا يكذبون البراهين، ولكن يجحدونها، فيصدون عنها، لأن الجحود: نفي ما في القلب إثباته، كما جاء في سورة النمل ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ فنكرانهم هو نكران جحود.، وكلمة ﴿ يَجْحَدُونَ ﴾ تفيد الإنكار بعد العلم، فإنهم ينكرون ما يعلمون أنه الحقيقة، فإنهم ينفون وينكرون ما استقر في أنفسهم من آيات الله تعالى؛ من أنها حق، ولذلك استقام معنى الجحود مع وصف الله تعالى لهم بالظالمين ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ فالظالم هو الذي ينكر الحق الذي يعرفه، سواء كان الحق معرفة وعلماً، أو حجة وبرهانا، أو كان الحق في مال، أو في أي شأن كان. فجحودهم هو جحود ظلم وتعدي على الحق الذي استقر في نفوسهم. مما يفيد أن آيات القرآن تتظافر ولا تتعارض. كما قال أبو الوليد، عتبة ابن ربيعة: أني قد سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش! أطيعوني واجعلوها بي، وخَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله

ليكوناً لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم[١] ومع هذا الاعتراف المؤكد فإنه لم يدخل في الإسلام، بهدف مجاراة كبراء قومه. فهو مثال للجحود، الذي هو رد الحق الذي أيقنوه بلا شك ولا ريب، بل عرفوه جازمين به أنه من عند الله عَزَّ وجل.

ثم يأتي التحدي لهم، بما يبرهن لهم أن القرآن هو كلام رب العالمين، وليس كما يزعمون أنه تقوله الرسول صلى الله عليه وسلم. فقال تعالى ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَـٰدِقِينَ ﴾ فإن كان قولهم صدقاً بأن محمداً صلى الله عليه وسلم افتراه وتقوله من عنده، فليثبتوا ذلك بأن يأتوا بقرآن مثله. وهم أفصح العرب، وأبلغهم في العربية. فهذا إثبات صدقهم إن كانوا صادقين في تهمتهم للرسول صلى الله عليه وسلم. وبما يفيد إن لم يأتوا بمثله، فهو إثبات كذبهم. وبالتالي فإنهم كاذبون فيما افتروا، وأنهم قوم طاغون. وهذه آية إعجاز إلى أن تقوم الساعة، تثبت أن القرآن هو كلام الله تعالى. فلا يستطع أحد، ولا جميع الخلق أن يأتوا بمثله أبداً.

ثم تنتقل حجج القرآن الكريم بالمكذبين إلى براهين أخرى، لا يمكنهم إلا الاستسلام لها، بما يُظهر لهم ولغيرهم أنهم يفترون الكذب بهتاناً وزوراً، بسبب بغيهم وطغيانهم النابع عن حسدهم واستكبارهم. فيقول تبارك وتعالى ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ هل يقولون أنهم خُلِقُوا من غير خالق لهم؟ أو أنهم خلقوا أنفسهم؟ سؤال يقررهم بأن الله تعالى هو الخالق لهم، وبالتالي يجب عليهم توحيده وحده لا شريك له، ومتابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فيردهم الله تعالى إلى آياته العظيمة في خلق أنفسهم ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ هل يؤمنون بأنهم قد خُلِقوا من غير خالق؟ ومن غير أسباب تؤدي إلى تناسلهم، وتكاثرهم؟ وبالتالي فمن أوجد هذه السنن في الخلق؟ وفي التكاثر البشري؟ سؤال يحصر فكرهم في حقيقة وجودهم. فإن قالوا: نعم، ولم يعترفوا فهناك سؤال آخر يحصرهم ليعودوا إلى الحقيقة، وهو ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ فإن لم يكن الله تعالى خالقهم، فهل خلقوا أنفسهم؟ فإن كانوا ينكرون الخالق سبحانه وتعالى، فكيف يثبتون أصل وجودهم. فهو سؤال يفيد الحصر، أي السبر والتقسيم. فهو تقسيم الأوجه المحتملة، ثم إبطالها، وحصر الصواب في عين الصواب الذي لا يخالطه شك.

فتم تقسيمه إلى أمرين: إما أن يكونوا قد ﴿ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ وهذا لا يمكن أن يقول به عاقل. والاحتمال الثاني هو: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ أو أنهم خلقوا أنفسهم؟ وهذا لا يقول به عاقل. فتم حصر الإجابة في أن هناك خالق لهم، وهو الله تعالى رب العالمين. بما يفيد إذاً يجب توحيد الله تعالى بالألوهية

(١) ابن هشام السيرة النبوية (١/٣١٣-٣١٤)

والربوبية، وصرف العبادة لله وحده لا شريك له. وبالتالي فإنه عَزَّ وجل لم يخلقهم عبثاً، من غير أمر ونهي، وتنظيم وتشريع لحياتهم. فقد خلقهم الله تعالى لهدف وغاية.

ثم ينتقل بهم من أنفسهم إلى ما يحيط بهم من الكون كله، فيقول تبارك وتعالى ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ فهل خلقوا السماوات والأرض؟ فلا يُؤمَرُون ولا يأتمرون، ولا يُنهون ولا ينتهون. سؤال يستثير العقول نحو التفكر في الكون كله. ولا أحد من البشر يقول بأن الناس خَلقوا السماوات والأرض. إذاً من خلقها؟ هل هي أوجدت نفسها بهذا النظم البديع العظيم؟ ولا يمكن لأحد أن يقول بذلك. إذاً هناك خالق خلقها وخلقكم. فهو استفهام تقريري بأنهم لم يخلقوا السماوات والأرض، كما لم يخلقوا أنفسهم، بل الله تعالى هو الخالق. فإذاً هناك غاية من هذا الوجود. وهو توحيد الخالق، وعبادته وحده لا شريك له. وأنه يبعث من يشاء بالحجج والبراهين التي منها القرآن الذي تحداكم أن تأتوا بمثله. وهو تحدي باق إلى أن تقوم الساعة. وبالتالي هو حجة ثابتة قائمة عبر تعاقب الأزمان والأجيال.

ثم يقرر تبارك وتعالى النتيجة لمسلكهم، فيقول عَزَّ وجل ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ إن الحقيقة هي أنهم قوم لا يريدون الإيمان بالحق، والتصديق والعمل به، وما يتبعه من البعث بعد الموت، ثم الحساب والجزاء. فإن تقريرهم بأنهم لم يخلقوا أنفسهم، ولا السماوات ولا الأرض يُوجب عليهم الإقرار بما يأتيهم من الخالق، بموجب الآيات الباهرات، التي منها حجة القرآن العظيم الكريم. وفي نفي اليقين عنهم هو إثبات كفرهم بإنكارهم، وتعمدهم في ذلك.

ثم ينتقل بهم البيان في سؤال استفهام، يقرر به عجزهم، وافتقارهم إلى ربهم سبحانه وتعالى. فيقول جَلَّ جلاله ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴾ فيرد الله تعالى على مقاييسهم في تقسيم الأرزاق والاختصاص والعطاء، والتي منها تخصيص الرسول صلى الله عليه وسلم بالرسالة. بسؤال استنكار وتوبيخ، فيا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم: هل امتلك هؤلاء المشركون مفاتيح خزائن ربك من الرحمة والاصطفاء والعطاء وعموم الأرزاق، حتى يحددوا ويختاروا ما يشاؤون لمن يشاؤون من العباد. سؤال استنكار من تصرفهم وأقوالهم التي يستنكرون بها على الله تعالى ما يشاء من العطاء والاصطفاء، وكأن لهم مُلك خزائن الله سبحانه وتعالى. فقد أنزل الله تعالى افتراءهم تصرفاتهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم منزلة كمن عنده خزائن رحمة الله تعالى، فيتصرفون فيها كيف يشاؤون. فهو سؤال تقريري بأنهم لا يملكون خزائن رحمة الله تعالى، فَيَصْطَفُون من يشاؤون للنبوة والرسالة، وبالتالي فإن الاصطفاء خاص بالله تعالى الذي يملك خزائن السماوات والأرض. فعليهم إذاً الإذعان لمن اصطفاه الله تعالى بالرسالة، وليس لهم أن يناكفوه فيما خصه الله تعالى به. مما يفيد أن معرفة هذه الحقائق تهذب عقل الإنسان، وتروض وتصحح عنده المقاييس التي يجب أن يقيس بها جميع الأمور.

وبالتالي تربي وتغرس في المؤمن حيال القيادة والإدارة والولاية أن عليهم اتباع من يمكنه الله تعالى من المؤمنين في ولاية أو إدارة، وألا يجعل مقاييسه الشخصية هي الحكم. بل يدرك أن لله تعالى الحكمة فيما يدبره ويختاره.

وقد ورد البيان الحكيم بصيغة الاستنكار الذي يفيد امتناع أن يكون لهم الحق في التعيين والاختصاص، إذ أن خزائن الله تعالى ليست موكلة لهم، ولا لأحد من العباد. وسماها الله تعالى ﴿ خَـزَآئِنُ ﴾ جمع خزينة، لإفادة الكثرة والتنوع. ومن جميل البيان ودقة دلالته أن أضاف الخزائن إليه سبحانه وتعالى ﴿ خَـزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾ بما يفيد أنه مع تنوعها وكثرتها ونفاستها، فإنها ملك له تبارك وتعالى، والتي منها الاصطفاء، فاصطفى سبحانه وتعالى النبي محمد صلى الله عليه وسلم لهذا الدين، والذي هو رحمة لمن أخذ به، وسعادة في الدنيا والآخرة، ونجاة من عذاب الله تعالى. وبذلك تم تقريب المعنى للمخاطبين. ولتعطي بياناً عن نفاسة ما وهب الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم من النبوة والرسالة ونزول القرآن العظيم عليه، فإن ذلك من خزائن رحمة الله تعالى.

وقد ربط تبارك وتعالى تلك الخزائن بربوبيته ﴿ خَـزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾ لإظهار الربوبية لكل ما خلق، فهو رب كل شيء ومالكه، وفي تعيين الرسول صلى الله عليه وسلم بالخطاب وبالنبوة والرسالة، ما يفيد عظيم التخصيص بالتشريف والاصطفاء. فإن رحمة الله تعالى ليست خاضعة لقسمتهم. فيختارون ما يشاؤون. بما يفيد نفي الاختيار للمخلوقين، فإن خزائن الله تعالى ليست خاضعة لهم، ولا لغيرهم. بل له سبحانه وتعالى، فهو أعلم حيث يجعل رسالته، وهو أدرى بمن يصطفي ويختار من عباده لرسالته.

ولما أنه لا أحد يقر بأنهم يملكون خزائن الله تعالى، ينقلهم البيان الكريم إلى أن تصرفهم هو كتصرف من يدعي ويزعم أنه يملك السيطرة على خزائن الله تعالى، فيديرها كيف يشاء، فكأنهم مُوكَّلُون بالتصرف فيها. فإن تصرفاتهم بالأقوال تماثل من يدعي أنه مسيطر على خزائن الله تعالى، فيتصرف فيها على هواه. فقال تعالى ﴿ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ﴾ سؤال توبيخ، وتقرير بأنهم ليس لهم السيطرة على خزائن ربهم. وبالتالي كيف يريدون أن يتدخلوا فيها، بأن يحسدوا محمداً صلى الله عليه وسلم على ما منحه الله تعالى من الاصطفاء لرسالته للعالمين. فإن لم تكونوا مسيطرين عليها فإذاً لماذا تحسدونه، فتنكرون عليه النبوة والحجج التي جاءكم بها؟ ليقررهم بأن جحودهم هو من باب الاستعلاء، وبالتالي يجب عليهم اتباعه صلى الله عليه وسلم، وبأن لا يمنعهم الحسد والاستكبار عن طاعة ربهم، فَيُدخِلُون أنفسهم في عذاب ربهم الأليم الشديد، ويحرمون أنفسهم من الجنة والنعيم المقيم.

فهي مناقشة لهم بقوة الحجة والتعقل والحقائق التي تُوردهم وتردهم للحق إن أرادوا الحق. فقد حلل بها حالهم وتفكيرهم ومرادهم، وأظهرهم على حقيقتهم المضادة للحق الثابت بالعقل والنقل. مما يبين عناية الله

تعالى بعباده، إذ يحاورهم بالحق، ويعلمهم، ويكشف لهم الحقائق، ليقيم عليهم الحجة، فيأخذ كل إنسان بما هو عليه من الحق أو الباطل. وهذا من عدله ورحمته سبحانه وتعالى. فيعطي عباده المنهجية العلمية في تحرير الكلام، وإدارة النقاش بالحق، والتفصيل الذي يكبت به الجاحد من كل وجه. كما يعلم هذا الأسلوب عباده المؤمنين المنهج الصحيح في الكشف عن حقائق الحق، وإظهاره للناس، بالسبر والتقسيم الذي يبطل كل أنواع الباطل، ثم يحصر الحق في نصابه وركنه المتين. الذي لا يتركه إلا هالك لنفسه.

وقد ورد في صحيح البخاري وصحيح مسلم رحمهم الله تعالى، أن جبير بن مُطعم رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في صلاة المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴾ قال: كاد قلبي أن يطير[1] من قوة تأثره بمضمونه، وبمعنى: أن يطير للإسلام. فأسلم رضي الله عنه بسماع ٣٧ آية من كتاب الله تعالى. بل عَبَّر عن قوة جذب ما سمعه من القرآن له بدلالة: كاد قلبي أن يطير. مما يبين قوة أثر القرآن الكريم على من يؤمن بالحق إذا عرفه.

وبعد تقرير فقرهم وضعفهم وعجزهم أمام خزائن العطاء من الله تعالى ينقلهم عَزَّ وجل بقوة البيان إلى إظهار المزيد من الحجج التي تخاطب العقل وترتقي به في الفكر إلى ما يُوجب الإذعان للحقائق، مع بلاغة الأسلوب الذي ينقلهم به تبارك وتعالى إلى ضعف قدراتهم عن معرفة ما يدور في الملأ الأعلى، فيقول جَلَّ شأنه ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ فهل لهم سلم ومرقى يصعدون به إلى السماء، فعرفوا أن الله تعالى لم ينبئ محمداً صلى الله عليه وسلم بالوحي؟ فهل لهم المصعد ووسيلة الصعود الذي يعرفون به ما يدور في السماء من قضاء الله تعالى؟ سؤال تقريري يقرر عجزهم، وكذلك سؤال استنكاري، وتوبيخي لهم. فيقرر الله تعالى به أنه ليس لهم شيء من ذلك. وبالتالي كيف يكذبون بالوحي، وهم عاجزون عن معرفة ما يدور في السماء مما يقضي الله تعالى به؟ فإنكارهم مع وجود الحجج والبراهين على نبوته صلى الله عليه وسلم هو نوع من أنواع الافتراء والتعالي.

وبالتالي فإما أنهم يقرون ويدَّعُون بأن لهم معرفة بما يدور في السماء من قضاء ربهم. وهنا عليهم الإثبات ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ فعلى المكلَّف منهم بالاستماع أن يأتي بالدليل من الحجة والبرهان ﴿ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ الذي هو سلطان الحجة الواضحة، الذي يثبت به أنه لم يتم الوحي للرسول صلى الله عليه وسلم. فإن عجزوا فهذا دليل على ضعفهم، وكذبهم، وافترائهم برد الحق من ربهم. ولما أنهم لا يقولون بأنهم يرتقون

(١) البخاري، برقم (٤٨٥٤) ومسلم، برقم (٤٦٣)

ويستمعون إلى ما يدور في السماء من القضاء، فإذاً كيف تحكمون على ما جاءكم من الحق المبين بأنه كذب، وكهانة وسحر، وشعر؟ فإذاً أنتم تفترون على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم الكذب، مع قوة ما جاءكم من الحق بالدليل والبرهان. وبهذا فقد بين الله تعالى حالهم مع الوحي أنه كحال من يملك القدرة على الارتقاء إلى السماء، فيسمع ما يدور في الملأ الأعلى، فيكذب ويصدق وفق ما سمع. مما يبين قوة جَراءتهم وجُرأتهم على الله تعالى بما نزل من الحق على رسوله صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا غاية الإبداع في الأسلوب المملوء بالحجج التي تخاطب العقول، والنفوس، لتردها إلى الحق بالأدلة العقلية. مما يفيد أهمية الأدلة العقلية في بيان الحق، وأنها حجج عظيمة القوة، لما فيها من إعادة الفكر إلى الحقائق بالأدلة والبراهين. وهي تعلم المؤمنين كيف يناقشون غيرهم، لدحر الشك والريبة والكذب، ونقلهم إلى الحق بأدق الأدلة العقلية. بل وترتقي بعقول المؤمنين، وتفتح أذهانهم على الحوار الدقيق الصادق. مما يستوجب أهمية تدريس وتعليم هذه الحجج الربانية، لتقوى العقول على مواجهة الباطل، ودحره، وإبطاله، وإحقاق الحق وإظهاره.

﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾

ويستمر البيان الكريم في إثارة العقول نحو الأدلة والبراهين التي تخاطب العقل بما يعقل من الحجج والبراهين. فيقول عَزَّ وجل ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ هل الأمر والشأن كما زعموا أن لربك البنات، ولهم البنون؟ سؤال يشتمل على التأنيب لهم على جرأتهم، بأن أسندوا ما يكرهون من الإناث لربهم، ويقصدون بذلك الملائكة، وأنهن بنات الله تعالى كما يزعمون، بينما جعلوا وخَصُّوا أنفسهم بالبنين. وكأن لهم التصرف في خزائن الله تعالى. مما يبين ويُظهر جُرأتهم على ربهم عَزَّ في علاه.

وقد بدأ البيان بحرف ﴿ أَمْ ﴾ الذي أفاد الانتقال إلى لمزيد من الإنكار والنفي لكل افتراءاتهم واختراعاتهم الناجمة عن طغيانهم، وذلك من أجل تعرية قولهم، وإثبات بطلان مَقُولِهم. وأنه خال من كل برهان

ودليل ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ فمن تماديهم في الباطل أنهم يقولون أن لربك البنات، وأن لهم البنون، كما ورد في سورة النحل، حيث قال الله تعالى فيها ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ فاخترعوا قسمة ينأون بأنفسهم عنها، لأنهم يفضلون الذكور على الإناث، إلى درجة الخجل من المولود إذا كان أنثى. فيفترون على الله تعالى الكذب، بأن له عَزَّ وجل بناتاً، وهذا نوع من أنواع كفرهم. وهذه جريمة من جرائم أقوالهم وأحكامهم التي امتلأت كذباً وبهتاناً. وقد ورد البيان بصيغة السؤال الذي يفيد إنكار قولهم، والاستخفاف بهم وبعقولهم، مع لومهم وعتابهم وتوبيخهم على هذا الافتراء، وعلى هذه الجرأة. فإن قولهم هذا من أقوى الأدلة على طغيانهم الذي وصفهم الله تعالى به فيما سبق، حيث قال عَزَّ وجل ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾.

ثم يتدرج البيان في محاكمة أقوالهم وافتراءاتهم، وتكذيبهم وجحودهم للحق وذلك بسؤال استنكار، يقرر به أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يطالبهم بمال من أموالهم، لقاء دعوتهم، فأثقل عليهم بما طلب، حتى يكون ذلك ذريعة لمواجهته صلى الله عليه وسلم بالجحود. فقال تعالى ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ فهل كان منك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم أن طلبت شيئاً من أموالهم لقاء دعوتك لهم إلى دين ربهم سبحانه وتعالى؟ ﴿ فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ فهم بهذا الطلب ﴿ مِّن مَّغْرَمٍ ﴾ أي: مما فرضت عليهم ﴿ مُّثْقَلُونَ ﴾ فأثقلت كاهلهم بما طلبت من أموالهم. فإن حقيقتك أيها النبي أنك لا تطلب منهم مالاً يثقلهم ويبعدهم عنك. فكيف لو طلبت منهم مالاً، بل إنك تطيع ربك سبحانه وتعالى فيما أمرك به، وترجو ثوابه. فيبطل بذلك استنكافهم عن قبول دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لهم لخير الدنيا والآخرة. فلم تعد لهم حجة يحتجون بها في جحودهم وعداوتهم للرسول صلى الله عليه وسلم، ولدين ربهم سبحانه وتعالى.

وقد استهل السياق الكريم بيانه بحرف ﴿ أَمْ ﴾ الذي أفاد وأعطى دلالة الاستفهام الإنكاري لفرضية أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد طلب منهم مالاً فأثقلهم. وفي ذلك تحليل لأوجه ما هم عليه من الطغيان تجاه الحق الواضح المبين. وفي هذا التحليل لأوجه ما يكون من الموانع دليل على عمق القرآن الكريم في أساليبه، ومحاوراته، وفي تفتيت ما زعموا من الافتراء؛ حتى الظنون والأوهام، وما قد يدور في القلوب والنفوس من الخفايا، وذلك من أجل إظهار بطلان كفر الكافرين، وأنه لا شيء يمنعهم عن دين الله تعالى إلا طغيانهم وشهواتهم، والحسد والاستكبار.

ويستمر البيان الكريم في إثارة العقول نحو الأدلة والبراهين التي تخاطب العقل بما يعقل من البراهين والحجج. فيقول عَزَّ وجل ﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ سؤال استنكار، يُبطل به سبحانه وتعالى

إنكارهم للنبوة والقرآن ﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ فهل رفضهم لنبوة رسولنا، وللقرآن بناء على امتلاكهم الغيب، وأنه مُوكَل لهم؟ فحالهم هو حال مَن كان الغيب في أيديهم، فيكتبونه كما يشاؤون، ويختارون ما يشاؤون.

ففيه إظهار لتصرفاتهم وتماديهم ﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ فهل رَفْضُهُم لنبوة رسولنا، وللقرآن بناء على امتلاكهم الغيب؟ سؤال يقرر به سبحانه وتعالى بُعدهم عن ذلك، وعجزهم عنه، غير أن تصرفاتهم نحو مراد ربهم وكأن لهم مُلك التصرف في الغيب. فيختارون ما يشاؤون، ويتركون ما يشاؤون.

لتكون النتيجة: فإن كنتم لا تملكون الغيب فعلى أي أساس تنكرون وتردون حجج الله الواضحات البينات، التي تصدقها عقولكم وتنفيها ألسنتكم، لما في قلوبكم من الحسد والطغيان والتعالي والتكبر. مما يفيد وجوب الاستسلام لله تعالى وللحجج والبراهين التي أنزلها الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، والتي منها القرآن العظيم.

أو أن مرادهم من العناد هو المكايدة للرسول صلى الله عليه وسلم، حسداً من عند أنفسهم، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴾ أم أنهم يريدون بك ﴿ كَيْدًا ﴾ وهو المكر الذي يحمل الشر خفية وخلسة. وهو الخديعة التي لا يشعر بها المخدوع ولا يظنها، وذلك بإظهار خلاف ما يريدون أن يُوقِعُوه فيه وبه. ولأن الله تعالى بصير بالعباد، وبما يكون منهم قبل أن يكون؛ فقد جعل الله عَزَّ وجل رسوله صلى الله عليه وسلم في وقاية من ذلك المكر، بأن جنبه، وجعله في حصانة من مكرهم. بل وجعل دائرة مكرهم عليهم. فقال تعالى ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴾ فالذين صنعوا المكر، وظنوا أنهم ناجحون بمكرهم، فإن ربك أيها الرسول قد قضى وحكم بأن يجعل دائرة كيدهم من المكر عائد وباله وشره عليهم. فضرر كيدهم سيحيق بهم. فأوقعهم الله تعالى بمكرهم في مواقع ومواطن كثيرة، ومنها المكر بهم يوم بدر، فكان قتلهم وأسرهم، وما حصل لهم من الذل والخزي والانكسار. إضافة إلى ما يصبهم به من مصائب الدنيا. مما يبين عظيم علم الله تعالى، وقوة تدبيره، وأن على الماكر في كل شأن أن يدرك عظيم علم وتدبير الله تعالى، فإن الله تعالى قد يجعل كيد الماكر يعود عليه خسراناً ووبالا. مما يُعلم المؤمن أن يتوكل على الله تعالى، وأن يستعين بربه جَلَّ في علاه، فهو الذي يتولى الصالحين بعلمه وقدرته عَزَّ وجل، كما يبين ذلك أن الله تعالى بقدرته وكمال علمه وتدبيره يمحق المكر، ويجعله وبالاً على صاحبه، مهما كانت دقته.

ثم تتعاظم الحجج عليهم، بما يبين تعاظم غضب الله تعالى عليهم. فيقول عَزَّ وجل ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فهل تماديهم هذا هو ناتج عن اعتقادهم أن هناك إلهاً غير الله تعالى يمدهم بالنصر والرزق ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ هل لهم رب غير الله تعالى في اعتقادهم الباطل؟ فإن كانوا يعتقدون ذلك

من قوة شركهم، فقد تنزه الله تبار وتعالى عن الشريك له ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فتنزه وتقدس الله تعالى عما يظنونه من الشرك. فإن الله تعالى واحد أحد، له ملك السماوات والأرض، فلا إله غيره، فقد تقدس وتنزه عَزَّ وجل عما يقولون. فقوله تعالى ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ هو سؤال استنكار عليهم، وتقرير بوحدانية الله تعالى، والذي أكده جَلَّ جلاله بقوله عَزَّ في علاه ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزه وتقدس الله تعالى عما يقولونه من الشرك. فينزه فيه عَزَّ وجل ذاته عن الشريك في ربوبيته، وألوهيته، وعبوديته. فلا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى.

وبهذا البيان العظيم فقد فَنَّد الله تعالى جميع الأوهام التي تدور في عقول أهل الكفر، وفَسَّرَهَا تفسيراً وتحليلاً دقيقاً، يكشف بها بطلانها وهزلها، وبعدها عن حقائق ربوبيته وألوهيته. وهذا الأسلوب من أدق وأجل الأساليب في المعالجة الفكرية التي انفرد بها القرآن من جميع الأوجه. بل إنها منهج وقواعد متكاملة في مهارة إقامة الحجج على أهل الباطل. فمن فهم القرآن فقد جمع في قلبه أعظم الحجج والبراهين على أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، وأن القرآن كلام الله تعالى، فلا ريب ولا شك فيه. وأن هذا الدين هو دين الله عَزَّ وجل. كما يُعَلِّمُ المؤمنين مهارات البيان في إقامة الحجج الصحيحة الواضحة التي يُبطلون بها ما يقابلونه من الأباطيل.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان قوة تمادي هؤلاء المشركين في الباطل، حتى لو أنهم رأوا شيئاً من عذاب الله تعالى ساقطاً، فإنهم يفسرونه بأنه إنعام عليهم من الغيث والمطر. وذلك من قوة طغيانهم في تفسير كل شيء بما تهوى أنفسهم. فقال تعالى ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ وإن رأى هؤلاء الجاحدون للحق ﴿ كِسْفًا ﴾ أي: قطعاً من العذاب، عظيماً ومهولاً ﴿ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا ﴾ نازلاً على الأرض لفسروه وأولوه تأويلاً بحسب مرادهم، ولم يؤوله على حقيقته. بأن ﴿ يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ أي: سحاب قد تراكم بعضه على بعض. فتأويلهم وتفسيرهم يأتي بحسب أهوائهم، فلا يعتبرون بالحق والحقائق. مما يبين أنهم لا يعتبرون بالحقائق، وقوة الشواهد. ومن فوائد ذلك أن على الإنسان أن يفهم الأمور على حقائقها، ولا يكابر، ولا يعاند، حتى لا يفسر الأمور بحسب ميوله وأهوائه، فيخادع نفسه، ويُباعد بها عن الحق والحقائق. فمن شروط الفهم والتحليل والتفسير الصحيح أن ينظر إلى الحقائق كما هي، من غير تأويل فاسد ومخادع.

ثم يتوجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ببيان المنهج الذي يجب أن يسير عليه معهم ومع غيرهم. فيقول تبارك وتعالى ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ فيا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم: اترك هؤلاء المتعالين على الحق حتى يحل بهم ذلك اليوم ﴿ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ الذي فيه

يموتون بالهلاك المدمر لهم. وتعني دلالة ﴿ يُصۡعَقُونَ ﴾ الإغماء بالغشيان الشديد، كما ورد في سورة الأعراف عن حال موسى عليه الصلاة والسلام، عندما رأى الجبل قد دَكَّهُ اللهُ تعالى دكاً ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ يعني سقط مغشياً عليه، لأن الصعق بمعنى الغشي، بسبب هول وقوة ما هاله من الأمر، فجعله لا يتحمل شدته. والمقصود بذلك كما قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يُهلكون. وذلك عند النفخة الأولى[١] وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: وذلك عند النفخة الأولى، نفخة الصعق[٢] مما يبين شدة غضب الله تعالى عليهم، وأن الله تعالى حليم، فيمهل ولا يهمل، وأن أخذه أخذ عزيز مقتدر.

ثم شرح وبين سبحانه وتعالى ذلك اليوم، فقال تعالى ﴿ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ فحين يأتي ذلك اليوم الموعودون فيه بالصعق ﴿ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا ﴾ فلن ينتفعوا بمكرهم، ولن يدفع ويرد عنهم شيء مما أراد الله تعالى بهم من العذاب. بل ويؤكد سبحانه وتعلى إحاطة العذاب بهم، إحاطة من لا ناصر ولا مخرج لهم منه أبداً. فقال تعالى ﴿ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ وليس لهم من ينصرهم، فيمنع عنهم العذاب. بما يفيد تحقق وقوع العذاب الذي لا دافع له عنهم بأي سبب من الأسباب، بل قد أحاط بهم إحاطة السوار بالمعصم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأن لهؤلاء عذاباً آخر قبل عذاب الآخرة، فقال تعالى ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ فإن لهؤلاء المتلبسين بالظلم من كل وجه ﴿ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أي: قبل ذلك اليوم. وفيه أربعة أقوال متظافرة: أحدها أنه عذاب القبر. والثاني: عذاب القتل يوم بدر. والثالث: مصائبهم في الدنيا، والرابع: عذاب الجوع[٣] وجميعها كائنة في حقهم. وتلك الأقوال هي من سعة استيعاب الآية الكريمة لكل عذاب يحصل لهم قبل عذاب الآخرة، مما يحصل لهم في الدنيا، وما يكون من عذاب القبر.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن جهل هؤلاء بما سيقع لهم من ذلك العذاب، فقال تعالى ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ فإن العذاب متحقق فيهم، ولكن أكثرهم لا يتوقعون ولا يخطر ببالهم وقوعه عليهم. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: أي: هو واقع لا محالة ولكن أكثرهم لا يعلمون وقوعه، أي: لا يخطر ببالهم وقوعه، وذلك من

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٠٢/٢١)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٤١٣/٤)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٢٤/٧-٢٢٥)

بطرهم. وأسند عدم العلم إلى أكثرهم دون جميعهم لأن فيهم أهل رأي ونظر يتوقعون حلول الشر[١] فأكثرهم لم يتفهموا وعيد الله تعالى لهم، لأنهم أتباع لغيرهم المكابرين الذين يعلمون أنه صلى الله عليه وسلم على حق، وأنه رسول من الله تعالى، ولكن منعهم الطغيان والاستكبار.

ثم يختم الله تبارك وتعالى سورة الطور بتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المنهج الذي يتبعه في حياته حيال ما يواجه من المكذبين الطاغين، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ وتحلى بالصبر إزاء ما يحكم به الله تعالى. ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ ليشمل ما يحكم به على أعدائه، وما يحكم به عليه صلى الله عليه وسلم من التكاليف، وما يكلف به المؤمنين في كل شأن من التكاليف والتشريع وغيره. مما يبين أهمية الصبر، والمتابعة، وعدم الجزع. وإذا كان الله تعالى يوجه رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر فإن حاجة غيره من الناس متأكدة للصبر من كل وجه. كما أفاد ذلك أهمية خُلق الصبر، والعلم بأن تدبير الله تعالى يحتاج أن يصبر عليه المؤمن، لأن عاقبته إلى خير. كما قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ فإنك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم تحت نظرنا، وتدبيرنا ورعايتنا لك، فنحفظك ونرعاك. مما يدل على عناية الله تعالى العظيمة برسوله صلى الله عليه وسلم، ويقاس عليه عناية الله تعالى بكل من يتبع رسوله عليه الصلاة والسلام.

ثم يأمر الله تعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم بالتسبيح، وهو أن يذكر الله تعالى، منزهاً له. فقال تعالى ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ فنزه ربك بالتسبيح والحمد في شأنك كله. وقد شمل التسبيح: الذكر باللسان، وبالقلب، وبالفعل بالصلاة والعبادات.

وفي دلالة هذا التسبيح ستة أقوال، قد استوفت المعنى من غير تعارض، بل في تكامل وتعاضد، فأحدها: صلِّ لله سبحانه وتعالى حين تقوم من منامك. والثاني: قل: سبحانك اللهم وبحمدك حين تقوم من مجلسك. والثالث: قل: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك، حين تقوم في الصلاة. والرابع: سبح الله إذا قمت من نومك. والخامس: صل صلاة الظهر إذا قمت من نوم القائلة. والسادس: اذكر الله بلسانك حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل في الصلاة[٢] وجميعها في تعاضد، وتوافق، ولا تعارض بينها، بما يبين مداومة التسبيح منذ أن يقوم من نومه عليه الصلاة والسلام إلى أن ينام. فلا يزال لسانه رطباً

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٦٥/١١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٢٥/٧)

بذكر ربه سبحانه وتعالى. مما يبين أهمية الذكر وفائدته، وأنه قوة وعزة للمؤمن، وأن الله تعالى يدفع به الشرور، ويجلب به الخير.

ثم يضيف سبحانه وتعالى من الأوقات ما يخص الليل، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ وفي هذا التخصيص ما يدل على أهمية العناية بالتسبيح فيما عينه تبارك وتعالى على وجه الخصوص ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ ﴾ أي: ومن بعض أجزاء الليل، وشيئاً من الليل، فاعمره بالتسبيح، ليشمل بذلك صلاة المغرب التي هي أول الليل، وكذلك صلاة العشاء. وما يكون من صلاة التهجد. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ومن الليل فَعَظِّم ربك يا محمد بالصلاة له، والعبادة، وذلك صلاة المغرب والعشاء[١] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة في الليل[٢] وعن مجاهد رحمه الله تعالى أنها صلاة الليل كله[٣] ثم يعين سبحانه وتعالى القيام بالتسبيح حين تغيب النجوم، وذلك بظهور ضوء الصباح، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ أي: التسبيح حين تغيب النجوم بظهور ضوء الصباح. وقيل عُني بذلك ركعتا الفجر[٤] ودبر كل شيء نهايته. وفي تعيين هذه الأوقات من الله تعالى ما يدل على منزلتها عنده عَزَّ وجل. وأن لله جَلَّ جلاله تخصيص ما يشاء، وتشريع ما يشاء. وأن على العباد الطاعة والامتثال. كما يفيد ويبين ذلك فضل التسبيح وأهميته، وأن على المؤمن الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة الطور. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٦٠٨)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢٦٣)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/٢٠٠)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٦٠٨)